﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ٣٠﴾ [الأحزاب: 30]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الوعيد بالعذاب الأليم بعد الوعيد بمفارقته لاجتناب ما يسوء النَّبيَّ في كلا الموضعين

لمّا خَيّرَ النَّبيُّ صلّى الله عليه وآله وسلَّم أزواجَهُ، واخترن الله ورسوله، أَدَّبَهُنَّ الله، وهدَّدَهُنَّ للتّوَقِّي عمّا يسوء النَّبيَّ ﷺ، ويقبح بِهِنَّ؛ حتى لا يَعُدنَ إلى التطلُّع للحياة الدنيا وزينتها، المتوعَّد عليه بالطلاق.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِفَٰحِشَةٖ﴾: (فحش) كلمة تدلُّ على قُبح في شيء وشناعةٍ[1]؛ لمجاوزته الحدَّ مع تكرُّهٍ له وذمٍّ شديد، فالفُحش والفاحشة والفحشاء ما عظُم قبحه من الأفعال والأقوال[2]، وكلُّ ما حرَّمه الشَّرعُ؛ فهو فاحشٌ، أو هي ما فَحُشَ من الكبائر خصوصًا، وهو الذَّنب الَّذي عاقب الله عليه بالحدِّ وتوعَّد فاعله بالعذاب الشديد، وقال بعضهم: الفاحشة إذا وردت معرفة؛ فهي الزِّنى ونحوه، وإذا وردت منكَّرةً؛ فهي سائر المعاصي من كلِّ ما يُسْتَفْحَشُ، وإذا وردت موصوفةً بالبيان، كما في هذه الآية، فهي عقوقُ الزَّوج وفسادُ عِشْرَته[3].

2) ﴿يُضَٰعَفۡ﴾: (ضعف) أصلان متباينان، يدلُّ أحدهما على خلاف القوَّة، ويدلُّ الثّاني على أن يُزاد الشَّيء مِثْلَهُ، وهو المقصود في هذه الآية، قال الخليل: أَضْعَفْتُ الشَّيء إضعافًا، وضَعَّفته تضعيفًا، وضاعفته مضاعفة، وهو أن يُزاد على أصل الشَّيء، فيجعل مثلين أو أكثر[4]، وهو عند العرب أيضًا المِثْلُ إلى ما زادَ، وليس مقصورًا

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فحش).
(2) الراغب، المفردات: (فحش).
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 381.
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والأزهري تهذيب اللغة: (ضعف).

على المِثلين، ويُرجَّح ذلك قوله تعالى في ذكر ثواب المؤمنين: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ [سبأ: 37]، وقد تضافرت الآيات والأحاديث على أنَّ الضَّعف هنا عشرة أمثال، وضِعْفُ الشيء مِثْلُهُ، وضِعفاهُ مِثْلاهُ، وأضعافُهُ أمثالُهُ[1]، فأصل معناه: هو أن يُزادَ الشَّيءُ مِثْلَهُ [2]، فمعنى مضاعفة العذاب في الآية: أنَّه يكون ضِعف عذاب أمثال تلك المعصية؛ إذا صدرت من غير نساء النَّبيِّ، وهو ضعف في القوَّة وفي المدَّة[3].

3) ﴿يَسِيرًا﴾: (يسر) أصلٌ يدلُّ على انفتاح شيء وخفَّته[4]، واليُسْرُ: ضدُّ العسر، وتَيَسَّرَ كذا، واسْتَيْسَرَ، أي: تسهَّل، قال تعالى: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: 20]، أي: تَسَهَّلَ، وتَهَيَّأَ، واليَسِيرُ والمَيْسُورُ: السَّهلُ[5]، واليسير: الهيِّن أو القليل، يُقال: شيءٌ يسير، أي: هَيِّنٌ أو قليل[6]، ومعنى كون تضعيف العذاب لأزواج النَّبيِّ ﷺ - إن أتين بفاحشة - هو الأمر اليسير على الله ﷻ، أي: سهلًا لا يصعب عليه، ولا يتعاظَمُهُ[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تغليظُ العقوبة على قدر المكانة والمنزلة

يُخاطب الله سبحانه نساء النَّبيِّ الكريم بأنَّه مَن يأتِ منهنَّ بمعصية ظاهرة؛ يُضاعَفْ لها العذابُ مرَّتين أو أكثر، فلمّا كانت مكانتهنَّ رفيعة؛ ناسب أن يجعل الله للذَّنب الواقع منهنَّ عقوبة مغلَّظة؛ صيانة لجنابهن وجناب رسول الله ﷺ، وكان ذلك العقاب على الله يسيرًا[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضعف).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (ضعف).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 320.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يسر).
(5) الراغب، المفردات: (يسر).
(6) الزّبيدي، تاج العروس: (يسر).
(7) الهرريّ، حدائق الروح والريحان: 22/ 488.
(8) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 421.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ النِّداء في الآية:

توجيهُ النِّداء لإظهار الحرص والاعتناء

جاء في قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ نداءُ الله سبحانه لنساء النَّبيِّ ﷺ تلوينًا للخطاب، فقد كان الخطاب قبل هذه الآية موجَّهًا للنَّبي ﷺ ذاته، كما أنَّ في توجيه النِّداء لنساء النبيِّ صلّى عليه وسلَّم إظهارَ الاعتناءِ بنصحهن، والحرص عليهن، وليجعلن بالهنَّ ممّا يخاطبن به؛ اهتمامًا بما سيُلقى إليهن؛ إذا كان أمرًا يجعل له البال[1].

نكتةُ الخطاب المباشر في الآية:

مكانةُ أزواج النَّبيِّ عند الربِّ العليِّ

تولّى الله سبحانه في قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ﴾ خطابَ نساء النَّبيِّ ﷺ بعد أن أمر رسوله بتخييرهن، فخيَّرهن، فاخترن الله ورسوله والدّار الآخرة، فخاطبهن ربُّهن خطابًا؛ لأنَّهن أصبحن على عهدٍ مع الله تعالى أن يؤتيَهنَّ أجرًا عظيمًا، وقد سمّاه عمرُ عهدًا؛ فإنَّه كان كثيرًا ما يقرأ في صلاة الصُّبح سورة الأحزاب، فإذا بلغ هذه الآية؛ رفع بها صوته، فقيل له في ذلك، فقال: أُذَكِّرُهُنَّ العهدَ[2].

سرُّ التَّعبيرِ بالنِّساء دون الأزواج:

شمولُ لفظِ النِّساء للحلائل من الأزواج والإماء

عُبِّرَ في قوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ بلفظ (النِّساء) دون (الأزواج)؛ لكون المرادِ بهنَّ الحلائل من الأزواج والإماء، فاعتبار كونهنَّ نساءً في الموضعين أبلغُ من اعتبار كونهنَّ أزواجًا؛ لقصد الشمول، ولمناسبة ما سيُلقى إليهنَّ من أحكام بوصفهنَّ نساء[3].

دلالةُ الإضافة في قوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾:

المضافُ إلى العظيم عظيمُ القدر

أضيفت النِّساءُ في قوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ إلى النَّبيِّ ﷺ؛ تشريفًا لهنَّ وتعظيمًا لمكانتهنَّ، فهنَّ نساء النَّبيِّ وأمَّهات المؤمنين، وليعلمن أنَّ ما سيُلقى إليهنَّ من كلام يناسب علوَّ أقدارهن، كما أنَّ في ذلك

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 473، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 180.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 318.
(3) الآلوسيُّ، روح المعاني: 11/ 180.

تهييجًا لهنَّ على امتثال ما سيأتي من أحكام تخصُّهنَّ دون سائر نساء العالمين، قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأحزاب: 32].

سرُّ التَّعبيرِ بالنُّبوَّة في الآية:

علوُّ مرتبة أزواج النَّبيِّ وارتفاع منزلتهنَّ

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ في قوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ التَّعبيرَ بوصف النُّبوَّة دون الرِّسالة؛ لما يومِئ إليه لفظ النَّبيِّ من ارتفاع القدر وعلوِّ المكانة؛ إذ اشتقاقه من (نبو)، وهو يدلُّ على ارتفاع في الشَّيء عن غيره[1]، وبذلك أشار السّياق أيضًا إلى علوِّ مرتبة أزواجه وشرفهنَّ وارتفاع منزلتهن، فضوعِفَ لهنَّ الأجرُ والعذاب.

بلاغةُ التَّعبيرِ بأسلوب الشَّرط:

التَّهديدُ بمضاعفة العذاب جزاء المعصية

ورد أسلوب الشَّرطِ في قوله تعالى: ﴿مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾، والغرض البلاغيُّ منه إنَّما هو لتعليق العلم بمضمون الجواب على حصول مضمون الشَّرط، فيتوقَّف وقوع الثّاني على وقوع الأوَّل، فإذا وقع الأوَّلُ؛ وقع الثاني، فهُدِّدت أزواجُ النَّبيِّ ﷺ إذا فعلْنَ ما يسوء النَّبيَّ ﷺ؛ فإنَّهُ سيضاعف لهنَّ العذابَ يوم القيامة ضِعفين[2].

سرُّ التَّعبير بالإتيان دون الفعل:

المقدَّم على المحرَّمات مقدَّمٌ على العقوبات نفسها

جاء التَّعبيرُ بفعل الإتيان – في قول الله تعالى: ﴿مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ – لأنَّ الإقدام على الفاحشة لمّا كان لا يقع إلّا بمقدِّمات ممهِّدات له؛ كان فاعل الفاحشة هو الَّذي يذهب إليها بنفسه، ويختارها بطبعه[3]، وليست هي الَّتي تأتيه، وتتعرَّض له، كما أنَّ التَّعبير بالإتيان يفيد أنَّ مَن أتى الفاحشة هو الَّذي اختار العقوبة؛ لأنَّ المُقدِمَ على جريمة تترتَّب عليها عقوبة هو في حقيقة الأمر مُقْدِمٌ على العقوبة نفسها.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نبو).
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 22/ 488.
(3) المراغي، التّفسير: 04/ 205.

بلاغةُ الصورةِ البيانية في الآية:

السَّيرُ على طريق الفاحشة موصل إليها

يحتمل أن يكون قولُهُ تعالى: ﴿مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ مِن باب الاستعارة، وذلك أنَّ أصل الإتيان: المجيءُ إلى شيء، يُقال: أتيتُ فلانًا، أي: جئته، فإذا تعلَّق الإتيان بالحدث؛ دلَّ على فعل الشَّيء وتحصيله، كقولهم: أتيتُ العمرةَ، أي: فعلتها، فاستعير هنا الإتيانُ لفعل شيء؛ إشعارًا بأنَّ الأمر مقصودٌ، وقد سبقه عزمٌ على الفعل؛ لأنَّ فاعل شيء عن قصد يشبه السّائر إلى مكان حتّى يصله[1]، ففي قوله: ﴿مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ﴾ استعارة تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، وبلاغتها تصوير المعاني العقليَّة وإبرازها في صورة المحسوس، وذلك أدعى لإدراك حقيقتها والتَّنفير منها.

كما يحتمل أن تكون الصورة البيانية مجازًا مرسلًا بعلاقة السَّببيَّة؛ إذ أُطلِق السَّبَبُ، وهو الإتيانُ، وأُريد المسبَّبُ، وهو الفِعْلُ، والنُّكتَةُ في ذلك الإشارة إلى أنَّ السَّيرَ على طريق الفاحشة موصِل إليها وموقِع فيها.

دلالةُ حرف الجرِّ (مِنْ) في قوله: ﴿مِنكُنَّ﴾:

اختصاصُ أزواج النَّبيِّ بتضعيف الثَّواب أو العذاب

يدلُّ حرف (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ على البيان، فإنَّ مضاعفة العذاب على الإتيان بفاحشة خاصٌّ بأزواج النَّبيِّ ﷺ دون غيرهن من النِّساء لما لهنَّ مِن مزيَّة كونهن في بيت النُّبوَّة ومن كونهنَّ أمَّهات للمؤمنين.

بلاغةُ التَّعبير بالباء في الآية:

التلبُّس بالذنوب سبب للعذاب

يدلُّ حرف (الباء) في قوله تعالى: ﴿مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ على التَّعدية، بمعنى تعدية فعل الإتيان إلى مفعوله، وذلك لأنَّ الفعل اللّازم لا يصل إلى مفعوله إلّا بحرف جرٍّ، كما تحتمل الملابسة أو المصاحبة، أي: مَن يأتي بفعل ملابس لفاحشة أو مصاحب لها.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 04/ 270.

سرُّ التَّعبير بلفظ (فاحشة):

عظمُ الذَّنب تابع لمكانة صاحبه

أوثر في قوله تعالى: ﴿مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ التَّعبيرُ بلفظ (فاحشة)، وهي كلُّ ما يشتدُّ قبحه من الذُّنوب والمعاصي، وقد اختلف المفسِّرون في المقصود بالفاحشة في هذه الآية، فذهب بعضهم إلى أنَّ المقصود بها الزِّنى المعروف الَّذي أوجب الله عليه الحدَّ، فهو أصعب على الزوج من كلِّ ما تأتي به زوجته، غير أنَّه خرج في الآية مخرج قوله تعالى: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: 65]، من حيث إنَّ ذلك ممكن الوقوع في أوَّل النَّظر، ولا يقع جزمًا، فإنَّ الأنبياء صان الله زوجاتهم عن الفاحشة[1].

وذهب آخرون إلى أنَّ الفاحشة هنا وردت موصوفة بالبيان؛ إذ لا يمكن سترها، والزِّنى وغيره هو ممّا يُتَستَّرُ به، ولا يكون مُبَيَّنًا، ولهذا قالوا: ينبغي أن تُحمَلَ الفاحشةُ على عقوق الزَّوج، وفساد عشرته، وقال ابن عبّاس: يعني: النشوز وسوء الخلق، ولعلَّ وجه قول ابن عباس: إنَّ الزلَّة منهنَّ، كسوء الخلق ممّا يعدُّ فاحشة بالنِّسبة إليهنَّ؛ لشرفهن وعُلوِّ مقامهنَّ، خصوصًا إذا حصل بها أذيَّة النَّبيِّ ﷺ[2].

سرُّ التَّنكيرِ في لفظ (فاحشة):

اتِّساع المعاني للتقليل والإبهام والعموم

جاء في قوله تعالى: ﴿مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ لفظُ (فاحشة) نكرةً، ويحتمل تنكيرها التَّقليل مبالغة في التهديد بأنَّ أدنى معصية منهنَّ - لشرف منزلتهنَّ - توجب لهنَّ مضاعفة العذاب.

كما يحتمل تنكيرها الإبهام والعموم؛ ليشمل بذلك كلَّ المعاصي، نحو قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 90، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 166.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 382، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 473، والهرري، حدائق الروح والريحان: 22/ 488.

[الأعراف: 33]، ويؤكِّد ذلك أنَّها وردت هنا نكرة في سياق الشَّرط، وقال بعضهم: كلَّما وردت الفاحشة في القرآن معرفة؛ فهي الزِّنى ونحوه، وإذا وردت منكَّرة؛ فهي سائر المعاصي من كلِّ ما يُستفحَش[1].

بلاغةُ القراءاتِ في ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾:

إثـــراءُ المـعـاني وتكثير الدّلالات بتنوُّع القراءات

تنوَّعت القراءات في لفظ ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ من قوله تعالى: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾، فقرأها الجمهور بصيغة اسم الفاعل ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ بكسر الياء من (بَيَنَ) بمعنى: (تَبَيَّنَ)؛ مبالغة في بيان كونها فاحشةً ووضوحها حتى كأنَّها تُبَيِّنُ نفسَها، وقرأ ابن كثير وأبو بكر بفتح الياء ﴿مُّبَيَّنَةٍ﴾، أي: يبيِّنها فاعلها[2]، وتكون قراءة اسم الفاعل من باب المجاز العقلي.

دلالةُ التَّعبير بالمضاعفة في الآية:

تضاعُف الشَّرفِ وارتفاع الدَّرجات موجب لتضاعف العقوبات

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ﴾ بالفعل ﴿يُضَٰعَفْ﴾، والمضاعفة: تكريرُ شيء ذي مقدار بمثل مقداره أو أكثر، والضِّعفُ: مماثل لعدد ما.

ومعنى مضاعفة العذاب: أنَّه يكون ضِعف عذاب أمثال تلك المعصية؛ إذا صدرت من غيرهنَّ، وهو ضِعفٌ في القوَّة وفي المدَّة، فإن مَكَثَ غيرُهُنَّ ممَّن أتى بفاحشة مبيِّنة في النار يومًا مثلًا؛ مَكَثْنَ هُنَّ، لو أتينَ بمثل ما أتى يومين أو أكثر، وإن وجب على غيرهنَّ حدٌّ لفاحشة؛ وجب عليهنَّ لو أتين بمثلها حدّان أو زيادة.

وسببُ تضعيفِ العذاب: أنَّ الذنب منهنَّ أقبحُ، فإنَّ زيادة قُبحه تابعة لزيادة فضل المذنب والنِّعمة عليه، وتلك ظاهرة فيهنَّ؛ لشرفهنَّ وعلوِّ درجتهنَّ وارتفاع منزلتهنَّ، ولـمّا كانَ مكانُهُنَّ مَهبطَ الوحي من الأوامر والنَّواهي؛ لَزِمَهُنَّ بسبب ذلك، وبسبب كونهنَّ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 381.

(2) ابن الجزري، النشر: 02/ 248، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 319.

تحت الرَّسولِ ﷺ أكثر ممّا يلزم غيرهُنَّ، فضوعف لهنَّ الأجرُ والعذاب، ولذلك جُعِل حدُّ الحُرِّ ضِعفَ حَدِّ الرَّقيقِ، وعوتب الأنبياءُ عليهم السلام بما لا يُعاتَب بهِ غيرهم، وكذا حالُ العالم بالنِّسبة إلى الجاهل، فليس من يعلم كمن لا يعلم، وقد ثبت في هذه الشَّريعة في غير موضع أنَّ تضاعُفَ الشَّرفِ وارتفاع الدرجاتِ يوجِبُ لصاحبه - إذا عصى - تضاعفَ العقوباتِ، وقد روي عن زين العابدين رَضيَ الله تعالى عنه أنَّه قال له رجلٌ: "إنَّكم أهل بيت مغفورٌ لكم"، فغضِبَ، وقال: "نحنُ أحْرى أن يَجْريَ فينا ما أجرى الله تعالى في أزواج النبي صلّى الله تعالى عليه وسَلَّم مِن أن نكون كما تقول، إنّا نرى لمحْسِننا ضعفين من الأجر، ولمسيئنا ضعفين من العذاب"، وقرأ هذه الآية والَّتي تليها[1].

بلاغةُ القراءات في قوله: ﴿يُضَٰعَفۡ﴾:

تنـوُّع القـراءة وأثـره في بلاغة الآية

تنوَّعت القراءات في قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾، فقرأ الجمهور ﴿يُضَٰعَفۡ﴾ بتحتيَّة في أوَّلِهِ للغائب وفتح العين مبنيًّا للنائب ورُفِع ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ على أنَّه نائب فاعل، وقرأه ابن وابن عامر ﴿تُضَٰعِّفۡ﴾ بنون العظمة وبتشديد العين مكسورة ونصب ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾ على المفعولية، وقرأه أبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر ﴿يُضَٰعَّفۡ﴾ بتحتيَّة للغائب وتشديد العين مفتوحة[2]، فالحجَّة لمن خفَّف: أنَّ ﴿يُضَٰعَفۡ﴾ أكثر من (يُضعَّف)، والحجَّة لمن شدَّد: التَّكرير ومداومة الفعل[3]، وروى الطبريُّ عن أبي عمرو بن العلاء وعن أبي عبيدة معمر بن المثنى: أنَّ بين (ضاعَف وضَعَّفَ) فرقًا، فأمّا (ضاعف)؛ فيفيد جعل الشيء مثليه، فتصير ثلاثة أعْذِبَةٍ (جمع عذاب)، وأمّا (ضَعَّفَ)

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 11/ 180، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 320، والهرري، حدائق الروح والريحان: 22/ 488.

(2) ابن الجزري، النشر: 02/ 348، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 319.

(3) ابن خالويه، الحجة، ص: 98.

المشدَّدُ؛ فيفيد جعل الشَّيء مثله، قال الطبري: وهذا التفريق لا نعلم أحدًا من أهل العلم ادَّعاه غيرهما[1].

دلالةُ صيغة المضارع في الآية:

التَّهديدُ والوعيد بالعذاب الشَّديد يوم القيامة

أوثِرَت في قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ﴾ صيغةُ المضارع في الفعل على ﴿يُضَٰعَفۡ﴾ للدِّلالة على الاستقبال، إذ محلُّه يوم القيامة، كما يدلُّ المضارع على دوام مضاعفة العذاب وملازمته، وفي ذلك مِن التَّهديد والوعيد ما هو غليظ وشديد، فيوم القيامة أهولُ من غيره من الأيّام بما لا يُقايَس، وعذابُه أفظعُ من عذاب الدُّنيا بما لا يقارن[2].

سرُّ تقديم شبه الجملة ﴿لَهَا﴾:

تهديدُ نساءِ النَّبيِّ الكريم بمضاعفة العذاب لهنَّ دون سائر نساء العالمين

تقدَّمت في قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ﴾ شبهُ الجملة ﴿لَهَا﴾ على الفاعل ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾؛ لنكتة الاختصاص، بمعنى: قصر مضاعفة العذاب على مَن أتى من نساء النَّبيِّ ﷺ شيئًا من هذه الذنوب العظيمة والقبائح المنكرة دون غيرهنَّ من نساء العالمين وفاقًا لما اختصصن به من الشَّرف وعلوِّ الدرجة وارتفاع المنزلة، فهنَّ أمَّهات المؤمنين وأزواج خير البشر أجمعين.

بلاغةُ (أل) التعريفيَّة في العذاب:

اتِّساع المعاني بكثرة الاحتمالات

جاء في قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ﴾ لفظ ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ معرَّفًا بـ(أل) الدّالَّة على تعريف العهد، أي: العذاب الذي جعله الله للفاحشة[3]، وقد تكرَّر لفظُ العذاب في كثير من الآيات، وصار معهودًا عند المسلمين أنَّ العذاب المقصود في لسان الشَّرع هو عذاب نار جهنَّم والعياذ بالله، نحو قوله تعالى: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِۚ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ١٩﴾ [الزمر: 19].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 91.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 427.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 320.

دلالةُ التَّثنية في قوله: ﴿ضِعۡفَيۡنِ﴾:

ورودُ التَّثنية في كلام العرب كنايةٌ عن التَّكرير والكثرة

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ﴾ بلفظ ﴿ضِعۡفَيۡنِ﴾ بصيغة التَّثنية، فمِنَ العلماء من حمل التَّثنية على حقيقتها، فجعل معنى ضِعۡفَيۡنِ، أي: يُعذَّبنَ ضعفَي عذابِ غيرهنَّ، أي: مثليه فإن مكث غيرُهُنَّ ممَّن أتى بفاحشة مُبيَّنَةٍ في النّار يومًا مثلًا؛ مكثن هُنَّ لو أتين بمثل ما أتى يومين، وإن وجب على غيرهن حدٌّ لفاحشة؛ وجب عليهن لو أتين بمثلها حدّان، وقال أبو عمرو وأبو عبيدة فيما حكى الطبري عنهما: الضِّعفان أن يجعل الواحدة ثلاثة، فيكون عليهنَّ ثلاثة حدود، أو ثلاثة أمثال عذاب غيرهن، وقولهما مردود.

وجعل بعض العلماء صيغةَ التثنية في قوله: ﴿ضِعۡفَيۡنِ﴾ مستعملةً في إرادة الكثرة، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٞ ۝٤﴾ [الملك: 4]؛ لظهور أنَّ البصر لا يرجع خاسئًا وحسيرًا من تكرُّر النَّظر مرَّتين، والتَّثنية ترد في كلام العرب كناية عن التَّكرير، كقولهم: لَبَّيْكَ وسعدَيْك، وقولهم: دواليك، وبهذا لا معنى لتحديد المضاعفة المرادة في الآية لظهور إرادة الكثرة[1].

بلاغةُ فاصلة ختام الآية:

تأكيدُ الوعيد بعدم استثناء أيِّ أحد من التَّعذيب

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ على ما قبلَهُ بحرف الواو الدالِّ على الجمع والاقتران؛ لأنَّه خرج مخرجَ التَّذييل لما سبق، وفائدة التَّذييل - غالبًا - توكيد المذَيَّل، وإبراز حكمه في صورة كليَّة[2]، فأكَّد الله أنَّه يحقِّق وعيده، ولا يمنعه من ذلك أنَّها زوجة نبيٍّ، بل هو سبب له، وهو نظير قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 11/ 180، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 319، والهرري، حدائق الروح والريحان: 22/ 488.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/ 386.

لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ [التحريم: 10][1].

دلالةُ فعل الكينونة الماضي:

صفات الله سبحانه دائمة مطلقة

ورد في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ استعمالُ الفعل الماضي (كان)، الَّذي يأتي في الأصل للاتِّصاف بالخبر في الماضي مع الانقطاع، غير أنَّه يخرج؛ لدلالة الدَّوام والاستمرار بمعنى: (لم يزل)، أي: إنَّها تأتي دالَّة على الدَّوام[2]، وهذا الأصل في صفات الله سبحانه وأفعاله، فهي مطلقة، وفائدتها هنا الإشعار بأنَّ تضعيف العذاب مع كونه عظيمًا عندكم غير أنَّه على الله يسير يليق بمقام الجلال والكبرياء والعظمة[3].

دلالةُ اسمِ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

تضاعُفُ العقوباتِ بارتفاع الدَّرجات

استُعمِل في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ اسم الإشارة للبعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾، والنُّكتة في ذلك الدِّلالة على عظمة المشار إليه، وهو مضاعفة العذاب لأزواج النبيِّ ﷺ؛ إن أتين بفاحشة - مع شرفهنَّ وعلوِّ منزلتهنَّ - وذلك لأنَّ تضاعُفَ الشَّرف وارتفاع الدَّرجات، يوجب لصاحبه - إذا عصى - تضاعُفَ العقوبات.

سرُّ إظهار الاسم الأعظم في فاصلة الآية:

عظمةُ اللهِ سبحانه في تعذيبه على المعاصي والذُّنوب

أوثِرَ في قَوْله تَعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ التَّعبيرُ باسم الله الأعظم ﴿ٱللَّهِ﴾ الجامع لأسمائه الحسنى؛ تعظيمًا لحقِّ الألوهيَّة، وحَقيقةُ العَظَمَةِ مُخْتصَّةٌ به وحده سبحانه، فَيُذْكرُ لفظُ الجلالَةِ لإحضارِ المعْنى الجامعِ لِصفاتِ الكمالِ[4]، ومِن عظمته سبحانه في ألوهيَّتِه إثابةُ الطائع

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 320.
(2) السّيوطيّ، همع الهوامع: 1/ 120.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 427.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 40.

ومعاقبة العاصي، وفي هذا السّياق مضاعفةُ العذاب لأزواج النَّبيِّ ﷺ؛ إن أتين بفاحشة بما يليق بمقام الجلال والكبرياء والعظمة[1].

دلالةُ تقديم الجارّ والمجرور:

اختصاصُ الله المجيد بحساب العبيد

تَقَدَّمَ في قَوْله تَعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ الجارُّ والمجرور ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ على الخبر ﴿يَسِيرًا﴾؛ لإفادة الاختصاص، بمعنى: اختصاص الله سبحانه وحده بشؤون حساب العباد والجزاء على الأعمال ومضاعفة العذاب، كما أنَّ في هذا التقديم تربيةً للمهابة وتأكيدًا للوعيد الشَّديد.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ ﴿يَسِيرًا﴾:

شمولُ الوعيد والعقوبات لكلِّ العصاة دون محاباة

دلَّ لفظُ ﴿يَسِيرًا﴾ في قَوْله تَعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ على أنَّ تضعيفَ العذاب لأزواج النَّبيِّ ﷺ - إن أتين بفاحشة - أمرٌ سهلٌ على الله سبحانه، لا يصعب عليه، ولا يتعاظمه؛ لأنَّه لا يحابي أحدًا لأجل أحد، فكونهنَّ نساء رسوله ليس بمغنٍ عنهن شيئًا، بل هو سبب لمضاعفة العذاب، يدعوه إليه لمراعاة حقِّه، وليس أمر الله كأمر الخلق، حيث يتعذَّر عليهم تعذيب الأعزَّة بسبب كثرة شفعائهم[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المضاعفة والزّيادة:

عمومُ الزّيادة وخصوص المضاعفة بالمثل

يظهر الفرق بين (المضاعفة)، و(الزّيادة) في علاقة العموم والخصوص بينهما، فالزّيادةُ عامَّةٌ في مطلق الإضافة قليلة أو كثيرة، أمّا المضاعفة؛ فهي خاصَّة بتكرير شيء ذي مقدار بمثل مقداره ومماثله، فاختير في الآية لفظ (المضاعفة)؛ للدِّلالة على شرف أزواج النَّبيِّ ﷺ وعلوِّ درجتهن وارتفاع منزلتهنَّ بحيث إنَّ الذنب منهنَّ أقبح، فاستوجِبت المضاعفة مبالغة في التَّهديد[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 427.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 22/ 488.
(3) الآلوسيُّ، روح المعاني: 11/ 180، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 320، والهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 22/ 488.

الجُزْءُ
الثَّانِي وَالعِشْرُونَ

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والأربعون،
سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والأربعون، سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 45 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-98-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 45 : المجلد الخامس والأربعون، سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-98-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9766833 بتاريخ 2025/01/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»